اليوم العالمي للتخطيط الحضري 2020
"نشأة التخطيط الحضري الحديث في العالم ودولة الإمارات"

في العام 1949 أطلق أستاذ التخطيط الحضري في جامعة بيونس آيروس في الأرجنيتن "**البروفيسور كارلوس ماريا ديلا باوليرا"** فكرة تخصيص يوم عالمي للتخطيط الحضري، فتم اختيار الثامن من نوفمبر من كل عام ليكون يوما عالميا للتخطيط الحضري، تستذكر من خلاله الدول بمؤسساتها الرسمية والأهلية ومجتمعاتها دور وأهمية مهنة ومجال التخطيط الحضري الجيد في بناء مجتمعات ومستوطنات بشرية تتمتع بأفضل مستويات الاستدامة وتتوفر لها مقومات جودة الحياه والرفاه، وكما يمنح الاحتفال بهذا اليوم الفرصة للنظر إلى هذه المهنة والمجال الهام والحيوي من منظور وإطار عالمي، وبالتالي رفع مستوى الاهتمام به والتحسين المستمر في أداءه. تهدف هذه المقالة إلى التعريف بالتخطيط الحضري وتطوره على المستوى العالمي بالاضافة إلى إلقاء الضوء على نشأة التخطيط الحضري في دولة الإمارت.

التخطيط والتنظيم المكاني، أو العمراني كما يعرف كذلك هو ممارسة ونشاط انساني قديم بدأ منذ أن بدأ البشر كجماعات بالاستقرار في مكان واحد ليشكلوا ما يعرف بظاهرة "المستوطنة البشرية" والتي هي عبارة عن منطقة جغرافية محددة يستقر بها الانسان ويعمرها بغرض المعيشة المستقرة كمجتمع تربطه مصالح ودوافع وأهداف مشتركة. منذ ذلك الحين تطور التخطيط تطورا كبيرا مع تطور الحضارات البشرية والتطور العلمي و الزيادة في أعداد سكان المستوطنات البشرية وتسارع وتيرة التحضر وتركز السكان في مايعرف بالمناطق الحضرية من العالم.

إلا أن التخطيط الحضري الحديث كما نعرفه في عصرنا الحاضر، لم يبدأ بالتشكل كعلم مستقل ومجال وممارسة مهنية جديدة ومستقلة إلا في نهايات القرن التاسع عشر وكنتيجة طبيعية ومباشرة لما أفرزته "الثورة الصناعية الأولى" من تحديات واشكاليات صحية واجتماعية وبيئية لسكان المدن الكبرى التي شهدت نموا سكانيا واقتصاديا كبيرا لم تشهده من قبل بفعل تزايد النشاط والإنتاج الصناعي وهجرة الأيدي العاملة من المناطق الريفية المحيطة لتلبية حاجة المصانع المختلفة للقوى العاملة. ونتيجة لذلك اكتظت المدن بالسكان الجدد التي لم تكن مستعدة لاستيعابهم، فازداد تكدس الأفراد والأسر في مساكن لم تكن مزودة في أغلب الحالات بالمرافق الصحية الأساسية كدورات المياه والصرف الصحي وتمديدات المياه وتفتقر إلى التدفئة والنوافذ التي تسمح بتهوية الغرف وبدخول الضوء الطبيعي، وكما افتقرت الأحياء والمناطق التي يقطنها السكان إلى الفراغات العامة المناسبة والحدائق والمتنزهات الضرورية للترفيه عن السكان بعد ساعات العمل الطويلة والمتعبة في المصانع، علاوة على أن أجزاء كثيرة من تلك المدن كانت تفتقر إلى الخدمات الأساسية

كإطفاء الحرائق والتخلص من النفايات بأنواعها. التوسع في بناء المصانع بمحاذاة المناطق السكنية أدى كذلك إلى ارتفاع مستويات التلوث نتيجة لانتشار الضوضاء وملوثات الهواء من مداخن المصانع والبيوت التي كانت تستخدم الحطب للتدفئة وإعداد الطعام والمخلفات الصلبة والسائلة الناتجة عن عمليات الإنتاج الصناعي والتخلص منها بطرق عشوائية وخطرة داخل المدن وعلى أطرافها مما كان يؤدي كثيرا إلى تلوث مصادر مياه الشرب. وقد نتج عن كل هذه الظروف المعيشية المزرية انتشار الأوبئة والأمراض المعدية وازدياد حالات الوفاة المبكرة وكثرة الحوادث والاصابات وتفشي المشكلات النفسية والاجتماعية وحالات من عدم الاستقرار بين سكان المدن.

مع تفاقم هذه المشكلات الضخمة التي كانت تعاني منها المدن وتحديدا في السنوات الأخيرة للقرن التاسع عشر، ظهرت في أوروبا والولايات المتحدة ما يعرف في أدبيات التخطيط "**بحركة الصحة العامة**" التي قادها الأطباء وبعض المفكرين والمصلحين الاجتماعيين والتي بدأت بمحاولة فهم وتفسير ظاهرة انتقال الجراثيم المسببة للأمراض بين السكان والعلاقة المباشرة بين صحة الانسان البدنية والنفسية وسلامته وحالة البيئة المحيطة التي يعيش فيها، فظهرت على إثر ذلك الدعوات إلى تحسين ظروف البيئة المعيشية والصحية تحديدا في المدن، لتمهد بذلك الطريق إلى ولادة والتطور المرحلي للتخطيط الحضري كتخصص ومجال مهني جديد ودور رئيسي للحكومات والسلطات المحلية على وجه الخصوص.

تحديدا كانت الولادة الرسمية المعروفة للتخطيط الحضري الحديث على مستوى العالم في الخامس من ابريل من عام 1909 مع قيام البرلمان البريطاني بإصدار "**قانون الاسكان والتخطيط العمراني**" الذي كان يسري على كافة أرجاء انجلترا وويلز، وكانت تلك المرة الأولى التي يصدر فيها قانون يخص التخطيط منحت من خلاله الحكومات المحلية الصلاحيات بتنظيم اشتراطات البناء والمساكن وتم التصريح للسلطات المحلية لأول مرة بالقيام باعداد مخططات لتنظيم تقسيم الأراضي وفق معايير الصحة العامة وتحسين الوضع المعيشي العام والنواحي الجمالية وتحديد استعمالات الأراضي التي كانت قيد التطوير والتي على وشك التطوير في المستقبل القريب. اصدار القانون البريطاني في عام 1909 قدم نموذجا جديدا ومثاليا لتحذو حذوها بعض الدول الصناعية الأخرى في غرب اوروبا والولايات المتحدة التي كانت تعاني هي الأخرى من نفس المشكلات الحضرية.

أما على الصعيد الأكاديمي والعلمي فكانت جامعة ليفربول في انجلترا أول جامعة تمنح رسميا درجة علمية جامعية في التخطيط العمراني وذلك في عام 1909، وفي الجانب الآخر من المحيط الأطلسي بدأت جامعة هارفارد الشهيرة في ولاية ماساشوستس الأمريكية في عام 1923 بطرح أول برنامج دراسات عليا مخصص للتخطيط العمراني تتبع كلية العمارة، وقامت فيما بعد جامعات عديدة أخرى بتقديم برامج أكاديمية شبيهة ليصبح بذلك التخطيط الحضري أو العمراني مهنة ومجالا علميا

وبحثيا جديدا قائما بذاته ومبني على نظريات وفلسفات ومناهج ومدارس فكرية دائمة التطور والتحول متأثرة بنتائج التجربة العملية وتطور الوعي بمختلف القضايا والأولويات والقيم الانسانية التي تعكس تطلعات المجتمعات، بالإضافة إلى التطورات التكنولوجية المتوالية وانعكاس تأثيرها على أنماط المعيشة وبالتالي المستوطنات البشرية وطرق تنظيمها مكانيا.

بدأ التخطيط الحضري الحديث في دولة الإمارات قبل ستون عاما وتحديدا في عام 1960 عندما قرر المغفور له بإذن الله الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم حاكم دبي آنذك الاستعانة بالمخطط والمعماري البريطاني "**جون هاريس**"، الذي يعتبر أول من أدخل التخطيط الحضري إلى دولة الإمارات قبل قيامها كدولة، ليقوم ولأول مرة في تاريخ المدينة الصغيرة آنذاك باعداد مخطط حضري لمعالجة القضايا والمشكلات الحضرية القائمة وتهيئة المدينة لنموها المستقبلي خصوصا في ظل تزايد سكانها ونشاطها الاقتصادي نتيجة لتدفق الاستثمارات الحكومية والخاصة المدعومة بعوائد النفط وسياسات الإمارة الاقتصادية المنفتحة على خلق الفرص الاستثمارية وتنويع مصادر الدخل. وقد اتبعت مدينة أبوظبي كذلك نفس الخطوة في عام 1962 لتقوم هي الأخرى باعداد أول خطة حضرية في تاريخها، ومنذ ذلك الحين أصبح التخطيط الحضري يمثل أحد الأدوار الأساسية للحكومات المحلية والركيزة الأولى لتحقيق التنمية الشاملة اجتماعيا واقتصاديا وعمرانيا.

في يناير 2002 أصبح برنامج ماجستير التخطيط الحضري التابع لكلية العمارة والتصميم والفنون في الجامعة الأمريكية في الشارقة البرنامج الأكاديمي الأول في دولة الامارات المختص في تعليم التخطيط الحضري وتخرج منه العشرات من المخططين الحضريين الذي يشغلون وظائف مهمة في التخطيط والتصميم الحضري في دولة الإمارات وخارجها. في الوقت الحاضر هناك برنامج ماجستير آخر للتخطيط الحضري في جامعة السوربون بأبوظبي.

د. سالم علي الشافعي

أستاذ وخبير التخطيط الحضري

salemalshafiei@gmail.com